

المدن التي لا تزال آثارها ظاهرة الى يومنا . وقد شهد على عمران تلك الجهات احد جغرافيين اللاتين يُدعى پمپونيوس ميلا (Pomponius Mela, III, 12) حيث وصف غنى الامم التي تقطن شمالي سورِيَّة وقد نسب ثروتها « الى خصب مراكرها وكثرة انهارها التي تجري فيها السفن فتسهل بها المبادلات التجارية »

فترى من ثم أنَّ سورِيَّة كانت بموقعها العجيب اهلاً بان تصبح مركزاً لعلائق العالم القديم او قل بالحري انَّ الله جعلها رائداً للتمدن ووصلة بين الامم العادية اي المصريين والكلدان والامم الوسطى من يونان ورومان اجداد عالمنا المستجدة . ولورقينا في سُلَّم الاعصار الى اوائل القرون المتوسطة وجدنا اهل سورِيَّة يتأثرون اعقاب آباؤهم فيتوسطون بين الغرب واواسط آسية فهم الذين ادخلوا التمدن اليوناني في مدرستي نصيبين وجنديسابور كما أنَّهم جلبوا الى الغرب مرافق تلك البلاد

٣

السوريون حملة التمدن القديم

فن كل ما سبق لا يبقى للقارىء ريب في انَّ اهل سورِيَّة بتفرغهم للمبايعات وبتنقلهم في انحاء البر والبحر كانوا الرباط الوثيق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد النازحة عنه ومزجوا مزج الماء بالراح الشرق العتيق بالغرب المتزعزع . نعم انهم كانوا قبل كل شيء يعملون لاغراضهم ومصالحهم الخصوصية الا انَّ عملهم هذا كان يفيد الشعوب ايضاً فيعتمد ما نكل منها من المحاصيل ويخرجها من عزلتها فينتفع كل شعب مما اصابه الآخر سواء كان في الماديات او في الامور العقلية والادبية والدينية . وفي هذا لعمري جل الفائدة لاسيما في تلك الازمنة التي كانت الشعوب لا تعرف بعضها الا في ساحات القتال . فالفينيقيون نقلوا الى الغرب تمدن وادي النيل والفرات وعرفوا اهل تلك البلاد بمحصولات مصر وما بين النهرين واعمالهما الصناعية بعد أن اخرجوها على هيئة جديدة توافق احوال الفريين وتناسب حاجاتهم . ولعلمهم اثاروا في قلوب تلك الشعوب

الجديدة رغبة في الترقى والنجاح ومهدوا الطريق للفنون والآداب بين اليونان الذين ما كانوا ليلغوا ذروة الكمال في الفنون الجميلة لولا توسط الفينيقيين فأنه من المقرر أن التمدن اليوناني لم ينشأ بغتة على غير استعداد وبدون تهديد وأنما بُني على اساس سابق تقدمه زيد تمدن امم الشرق . وفضل الفينيقيين انهم كانوا حمة لذلك الترقى القديم الى اليونان . فأغنوا الغرب بمحصولات الشرق وبمصنوعات الشام فانتهت قرائح الغريين الى مجاراتهم ومزاحمتهم في العمل بعد ان اعملوا النظر في نحت التماثيل والدمى وفي حفر الحجارة الكريمة وفي صياغة الجواهر كما استلمها الفينيقيون من اهل مصر وبابل فزادوها تحسناً . فهذه المصنوعات الفينيقية كانت للغريين كلقاح لاذهانهم وشحد لافكارهم أدى بهم بعد قليل الى تلك العجائب الصناعية التي تفرّد بها اليونان بعد زمن . وان قيل ان الفينيقيين لم يطلبوا في ذلك غير الربح والمكسب فنجيب ان فائدتهم الخاصة لا تنفي الخدم التي ادّوها لغيرهم . والخدمة خدمة ولو طلب منها منفعة (١) ولعل الكتب لم ينسبوا قبلاً للفينيقيين لزعهم ان الفينيقيين كانوا تجاراً لا يهتمون بالفنون كأولف عادة التجار ولجلهم تأثير الصناعة الشرقية بالصناعة اليونانية

وقد اراد الله ان يعظم هذه الدعوة الشريفة التي خوّلها للفينيقيين ليكونوا وسطاء ونقّلة للمواد التجارية وللأمثلة الصناعية بان جعلهم سماسة الافكار كما جعلهم سماسة الاموال ليعدّوا الشعوب الجديدة لقبول الآداب والعلوم . ومهما قلنا في إطارهم فأننا لن نبالغ وذلك ليس فقط لأنهم بلغوا بقوافلهم الى البلاد النازحة فوصلوا بين اطراف الاقطار واقاصي الاصقاع لكن ايضاً لانهم زوّدوا الشعوب بألة عجيبة كانت اعظم عامل للتمدن زيد صناعة الكتابة وحروف الهجاء .

والحق يقال ان اختراع الابدعية قد اجدى للبشر نفعاً قد خلف وراءه الاختراعات التي تتباهى بها اعصارنا كفن الطباعة واكتشاف فوائد البخار والكهرباء . لان بهذه الصناعة الكتابية انفتحت للمعارف البشرية ابواب واسعة اذ بها نستطيع تدوين كل لغات العالم حتى قبل فهمها . بها جرى تقلّب عظيم في احوال الشعوب لكنه تقلّب هادئ سلمي غاية التحاب وتقريب الامم من بعضها

يقول الفلاسفة انَّ العادة طبيعة ثانية . يريدون انَّ الانسان لا يتأثر ممَّا اعتاد نظره واثقله بالتكرار فانَّ العجائب الطبيعية التي نراها كل يوم تسقط من اعيننا . فكذا قلَّ عن اختراع الابدعية . قال الاب ديلاثر اليسوعي : « ليت شعري ايوجد شيء اعجب من اختراع الانسان لعشرين الى ثلاثين علامة يتمكن بها على ان يترجم عن كل معاني قلبه وعواطف نفسه » وهذه الطريقة العجيبة في سداجتها يعود الفضل في اختراعها وان شئت قلَّ في نشرها الى الفينيقيين . فانهم اُطلقوا تلك الطرائق السابقة التي شاعت قبلهم بتوفير الصور الكتابية وتمثيل مقاطع الالفاظ ورسم اصوات الكلام التي كان يتيه فيها علماء مصر وبابل . فنابت بحروف الهجاء عن تلك المئات والالوف من العلامات حروف قليلة تؤدي كل تهجيات اللسان في لغات معظم الشعوب القديمة والحديثة

وهنا ايضا قد لعبت الجغرافية دوراً مهماً . قال لوزمان في تاريخ الشرق القديم (ج ١ ص ٤٤٨) : « كان ينبغي للشعب المدعو لتنظيم الكتابة البشرية وتكميلها ونشرها ان يكون شعباً تجارياً عاملاً لا يستغني عن مسك الدفاتر وضبط الحسابات التجارية ويكون مع هذا متاحفاً لمصر موسوماً بسمة التمدن المنتشر على ضفاف النيل . ولا نعرف في العالم القديم امة غير الامة الفينيقيَّة كانت تقوم بهذه الشروط اذ كانوا بموقع بلادهم احق من سواهم بان يكونوا قوماً وسطاً متأهين لنقل محصولات التجارة الى الاقطار البعيدة والسواحل النائية وهم مع ذلك مواصلون للاعمال مع مصر جارتهم

وقد نقل الفينيقيون الى البلاد السحيقة ليس فقط حروف الهجاء لتسهيل المعاملات بل كل مصنوعات بابل ومصر مع اعمال صناعتهم الوطنية و اضافوا الى ذلك ما نقلوه من الادوات المفيدة ومن الحيوانات الداجنة ومن احرار البقول . وقد وجد الاثريون في اقطار غربيَّة شتَّى ما كان اتى به اليها الفينيقيون من المعادن وضروب الحشب والصنع والانسجة والحرفيات وغير ذلك من المصنوعات التي اعدت للتمدن القبائل الغربيَّة المستوطنة للغابات . وقد جرى السوريون على هذه الطريقة في نقل اختراعات الشرق ومحصولات التمدن نحو الف سنة حتَّى اُثر مثاهم في قلوب اولئك السكان فاخذوا ينهجون منهمجهم ويتعقبون مدارجهم

قال هيرودوتس ميلا السابق ذكره (ك ١ ف ٢) : « ان الفينيقيين قوم جهابذة

حذاق يحسنون آداب الحرب ويستفيدون من منافع السلم . هم الذين وضعوا حروف الهجاء . فاستخدموها لأعمال شتى واخترعوا فنونا عديدة وهم ايضا الذين سبقوا الى خوض البحار وتقدموا الشعوب في الحروب البحرية .

جاء في كتاب حديث للعلامة فكتور بيرار دعاهُ « الفينيقيون والاولدياسة » (V. Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*) : انَّ جغرافية منظومة اميروس الاولدياسة مبنية غالبا على المعلومات التي استفادها ذلك الشاعر المفلق من الفينيقيين . ثم استشهد لتأييد قوله بالجغرافي سترابون حيث قال : انَّ الفينيقيين ارشدوه الى معرفة وصف البلدان (οἱ γὰρ Φοίνικες ἐδήλουν τοῦτο) . وكتاب المسيو بيرار مشحون بالتفاصيل والادلة المثبتة لسيطرة الفينيقيين على البحار (اطلب المشرق ٩ : ٢٣٤)

ولما اراد سنأحريب ملك اشور ان يجهز لدولته اسطولا بحريا في الخليج العجمي لم يجد من يقوم بعمله غير الفينيقيين . قال في احدي كتاباته : « قد اقمْتُ في نينوى رجالا من الحثيين (وكان الحثيون من سكان سورية) أسرهم قوسي فعمرؤا لي مراكب كبيرة على مثال بلادهم فجهزتها بالملاحين السوريين والصيدونيين الذين قبضتهم يدي »

وقد حفظ اهل فينيقية السيادة على البحار حتى في عهد اليونان بعد فتوحات الاسكندر الذي جرى على مثال سنأحريب في تجهيز المراكب . وقلما تجد في تواريخ اليونان كاتباً يذكر سفينة لا يكون ربانها سورياً او فينيقياً

٤

السوريون دعاة الدين

هذا ولاهل الشام فخر آخر غير المفاخر السابقة فانهم ليس فقط توسطوا بين الدول القديمة المتمدنة والامم التي اشتقت الشعوب المستحدثة لكنهم ايضا نالوا امتيازاً آخر فدعاهم الله لتربية العالم الادبية والدينية فصاروا متوسطين بين الله والانسان ومن هذا